بسم الله الرحمن الرحيم

أسأل الله الكريم ربَّ العرش العظيم أن يتولاَّك في الدنيا والآخرة، وأن يجعلك مباركًا أيْنَما كنت، وأن يَجْعلك مِمَّن إذا أعطي شكَر، وإذا ابتُلِي صبر، وإذا أذنب استغفر، فإنَّ هؤلاء الثَّلاث عنوانُ السَّعادة.

العبادة لا تُسَمَّى عبادةً إلا مع التوحيد

اعلم – أَرْشَدَكَ الله تعالى لطاعته – أنَّ الحنيفيَّةَ ملَّةَ إبراهيم: أن تعبد الله وحْدَه مُخلصًا له الدِّين، وبِذَلك أمَر اللهُ جميع الناس، وخلَقَهم لها، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: 56]، فإذا عرفْتَ أنَّ الله خلقك لعبادته؛ فاعْلَم أن العبادة لا تسمَّى عبادة إلاَّ مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تسمَّى صلاة إلا مع الطهارة، فإذا دخل الشِّرك في العبادة فسَدَت، كالحدث إذا دخل في الطَّهارة أفسدها كما قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ [التوبة: 17].

لا بدَّ مِن أن نُميِّز التوحيد من الشِّرك؛ حتَّى نتخلَّص من الشرك

فإذا عرَفْتَ أنَّ الشِّرك إذا خالَط العِبادة أفسدها، وأحبط العمل، وصار صاحبُه من الخالدين في النَّار، عرفتَ أنَّ أهمَّ ما عليك معرفةُ الشِّرك الذي هذا قدْرُه عند الله؛ لعلَّ الله أن يُخَلِّصك من هذه الشَّبكة، وهي الشِّرك بالله الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: 116]، وذلك بمعرفة أربع قواعد، ذكَرَها الله تعالى في كتابه.

القاعدة الأولى

أنَّ الكفار في زمن الرسول الذين قاتلهم كانوا مقرِّين بتوحيد الرُّبوبية، ولم يكونوا مقرين بتوحيد الألوهية

أنْ تَعْلم أنَّ الكُفَّار الذين قاتَلَهم رسول الله ﷺ يقرُّون بأن الله تعالى هو الخالق الرازق، المُحْيي المميت، المدبِّر لِجَميع الأمور، وأن ذلك لم يُدْخِلهم في الإسلام، والدليل قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: 31]. فإذا عرفْتَ هذه القاعدة، وأشكل عليك كيف أقرُّوا بِهذا؛ ثم توَجَّهُوا إلى غَيْر اللهِ يدعونه، فاعرف القاعدة الثانية.

القاعدة الثانية

أن الكفار في زمن الرسول الذين قاتلهم كانوا يعبدون الأصنام، لا لأنَّها تنفع وتضرُّ، بل لأجل القربة والشفاعة فقط وهي أنَّهم يقولون: "ما دعَوْناهم وتوجَّهْنا إليهم" إلاَّ لطَلَب القربة و الشَّفاعة عند الله، نُريد من الله لا منهم، ولكن بِشَفاعتهم فدليل القُرْبة قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر: 3].

ودليل الشَّفاعة قوله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: 18]، وكم من موضعٍ في القرآن يدلُّ على هذا!.

والشفاعة شفاعتان: شفاعة منفيَّة، وشفاعة مثبتة.

فالشفاعة المنفيَّة ما كانت تطلب مِن غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ والدليل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة 254]. والشفاعة المثبَتة هي التي تُطْلَب من الله، والشافع مكرَّم بالشَّفاعة، والمشفوع له من رَضِي اللهُ قولَه وعمله بعد الإذن؛ كما قال تعالى: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة: 255].

(فإذا عرفْتَ هذا فاعرف القاعدة الثالثة):

القاعدة الثالثة

أن النبيَّ ﷺ ظهر على ناسٍ متفرِّقين في عباداتهم لم يفرِّق بينهم

أنَّ النبي ﷺ ظهر على أُناس متفرِّقين في عباداتهم؛ منهم مَن يعبد الملائكة، ومنهم مَن يعبد الأنبياء والصالحين، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار، ومنهم مَن يعبد الشمس والقمر، وقاتَلهم رسولُ الله – ﷺ ولَم يُفرق بينهم، والدليل قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال 39]. ودليل الشمس والقمر؛ قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت 37]. ودليل الملائكة قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ﴾

[آل عمران: 80]؛ الآية. ودليل الأنبياء ؛قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: 116 – 118]. ودليل الصالحين؛قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ الآية[الإسراء 56 –57].

ودليل الأشجار والأحجار قولُه تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ [النجم 19 –20].

وحديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه قال: خرَجْنا مع النبِيِّ ﷺ إلى حُنين ونحن حُدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة، يعكفون عندها وينوطون بِها أسلحتهم، يُقال لها: ذات أنواطٍ، فمررنا بسدرةٍ فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذاتَ أنواطٍ كما لهم ذات أنواط... الحديث).

(فإذا عرفت هذا فاعرف القاعدة الرابعة):

القاعدة الرابعة

أنَّ مُشركي زماننا أعْظم شِرْكًا مِنَ الأوَّلين

أنَّ الكُفَّار الذين قاتلَهُم رسولُ الله ﷺ كانوا يُخْلِصُون في الشدَّة، وينسَوْن ما يشركون، والدليل قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت65]. وأهلُ زماننا هذا مُخْلِصون في الشدائد بالدَّعوة لغير الله، فإذا عرَفْت هذا فاعرف أنَّ المشركين الذين في زمن النبِيِّ ﷺ وقاتلهم، أهوَنُ من مشركي زماننا؛ لأنَّهم يُخْلِصون في الشدائد، وهؤلاء يدعون مشايخهم في الشدَّة والرَّخاء، والله أعلم.

تمَّت، وصلَّى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.